

2021

Power, Resistance and Revolution in Michel Foucault

محمد الطوالبة

المملكة الأردنية، عمان، الأردن, mohammadtawalbeh12@yahoo.com

محمود بني دومي

جامعة جرش، جرش، الأردن, mohammaddome325@yahoo.com

Follow this and additional works at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/jpu>



Part of the [English Language and Literature Commons](#), and the [Social and Behavioral Sciences Commons](#)

Recommended Citation

"Power, Resistance and Revolution in Michel Foucault," *Jerash for Research and Studies Journal* *مجلة جرش للبحوث والدراسات*: Vol. 20 : Iss. 1 , Article 7.

Available at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/jpu/vol20/iss1/7>

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in *Jerash for Research and Studies Journal* *مجلة جرش للبحوث والدراسات* by an authorized editor. The journal is hosted on [Digital Commons](#), an Elsevier platform. For more information, please contact rakan@aarj.edu.jo, marah@aarj.edu.jo, u.murad@aarj.edu.jo.

Power, Resistance and Revolution in Michel Foucault

Cover Page Footnote

جميع الحقوق محفوظة لجامعة جرش 2019. قسم الفلسفة، كلية الاداب، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن. عمادة البحث العلمي، جامعة جرش، جرش، الأردن.

السلطة والمقاومة والثورة عند ميشيل فوكو

Power, Resistance and Revolution in Michel Foucault

محمد عبد الله الطوالبة* ومحمود بني دومي**

تاريخ الاستلام 2017/11/29

تاريخ القبول 2018/3/25

ملخص

لا زال فكر ميشيل فوكو وبحوثه الفلسفية -سيما ما يتعلق منها بالسلطة وعلاقتها بكل من المعرفة والمقاومة والثورة- مثار نقاش وجدل واسعين عند الكثير من الدارسين والباحثين، مثلما أنها تثير الكثير من ردود الفعل والاعتراضات والجدل. لقد هدفت هذه الدراسة إلى الوقوف على رؤية فوكو وكذا أنموذجه الذي قدمه في تحليل فكرة السلطة، مروراً بموقف فوكو وتحليله للمفهوم الماركسي للسلطة. ويُذكر أن الباحثان قد اعتمدا في هذه الدراسة على المنهج التحليلي بوصفه المنهج المناسب لمثل هذه الدراسة.

كما أن الدراسة أَلقت الضوء على موضوعات من قبيل ميكروفيزياء السلطة ومعارضته لنظرية الحق والتصور القانوني للسلطة، كما تناول تشكيل فوكو لمسلمات كانت تستند إليها السلطة من مثل مسلمة الملكية والتبعية وغيرها. وقد خلصت الدراسة إلى أن العلاقة بين السلطة والمقاومة لا يمكن عَدها علاقة تضاد وإنما يمكن القول بنظر فوكو أن المقاومة تندرج في علاقات السلطة:، فحيثما توجد السلطة، توجد المقاومة، بمعنى أن المقاومة ليست في وضع خارج عن السلطة."

واستناداً إلى أن السلطة تبقى رهينة بالشروط المتغيرة والاستراتيجيات المتقلبة. فالسلطة تشير إلى علاقة مثلما أن هذه العلاقة تتغير باستمرار، كما وتبين أن فهم فوكو للمقاومة وما يمكن أن تفضيه إلى ثورة يرتكز أساساً إلى تحليله لطبيعة السلطة من جهة أن المقاومة عنده تعد نموذجاً معرفياً بديلاً لنموذج السلطة، مثلما أن المقاومة هي عبارة عن مرحلة تطور بطيء نحو الثورة.

الكلمات المفتاحية: فوكو، السلطة، المقاومة، الثورة، المسلمة.

© جميع الحقوق محفوظة لجامعة جرش 2019.

* قسم الفلسفة، كلية الآداب، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.

** عمادة البحث العلمي، جامعة جرش، جرش، الأردن.

Abstract

Michel Foucault's thought and his philosophical research, especially those related to power and its relation to knowledge, resistance and revolution, are still controversial among many scholars and researchers. In fact his thought provokes many reactions, objections and arguments. This study aims at understanding Foucault's vision as well as his model in the analysis of the idea of power. In addition, it attempt to clarify his position and analysis of the Marxist concept of power. The study also shed light on topics such as the physics of power and its opposition to the theory of the right and the legal perception of power. Further, the study will address Foucault's questioning of the axioms that which power was based on, such as the monarchy, dependency and others. To achieve these objectives, the researchers adopted in this study the analytical approach as being the appropriate method for such analysis. The study concluded that the relationship between power and resistance cannot be counted as an antagonistic relationship, as for Foucault, resistance is inscribed within power relations:, i.e., wherever there is power, there is resistance, which means that resistance is never in a position of exteriority in relation to power. In addition, the study revealed that power refers to a relation that change continuously, as power remains hostage to changing conditions and volatile strategies. Furthermore, the study showed Foucault's understanding of the resistance and how it can lead to a revolution. Indeed this is based primarily on his analysis to the nature of power and based on the fact that resistance, according to him, is an alternative model of power, and that resistance is a stage of Slow development towards revolution.

Keywords: Foucault, power, resistance, revolution, axioms.

المقدمة

طرحت أبحاث ميشيل فوكو الفلسفية حول الذات والأخلاق والسلطة والعنف والحرية العديد من الاعتراضات وأثارت كثيراً من اللغظ والنقاش، خصوصاً بعد أن اقترنت فلسفته بتيار فلسفة موت الإنسان التي استقت دائماً من فلسفة نقد الميتافيزيقا عند نيتشه، هيدجر ودريدا، وقراءة التوسير الجديدة للماركسية، وخطاب الأنثروبولوجيا البنوية عند كلود ليفي ستروس ومن ثم من أركيولوجيا المعرفة والجنولوجيا عند ميشيل فوكو (الدواي، 2000). هذه الفلسفة التي عصفت بالنزعة الإنسانية التي قامت على أولوية الوعي والإرادة والذات والذاتية وأساس المبادرات البشرية في صناعة التاريخ. وهي الفلسفة التي انتهت إلى تفكيك الإنسان وعالمه الثقافي من خلال تفكيك العقلانية والعقل والمبادئ والقيم، والمعاني والدلالات، والغايات والأهداف، والتاريخ. ومهما يكن فإن أنصار هذا التيار، إضافة إلى نقد النزعة الإنسانية القديمة، لم يسقطوا من حساباتهم وتطلعاتهم التأسيس لنزعة إنسانية جديدة.

إنها النزعة التي اقتضت التخلي عن نوعين من الأوهام من الحقل الفكري هما: النزعة الإنسانية، والفكر التاريخي، وذلك من خلال تقدم العلم ذاته، أو بالدعوة إلى التحرر من أوهام الميتافيزيقا بما فيها العلم نفسه، حيث كانت عملية النقد للنزعة الإنسانية القديمة والتأسيس لنزعة إنسانية حديثة عملية لا استثناء فيها. هذا التوجه جعل ميشيل فوكو أحد أهم أقطاب ما يسمى بمفكري ما بعد الحداثة (الدواي، ص:7)، حيث اشتهر مايكل بإعطائه فترة ما بعد الحداثة سماتها الرئيسية المميزة، وخاصة فيما أعطاها من أهمية بالغة للاقتصاد وغيرها من البنى الاجتماعية (Gordon, 1980, p: 104).

وليس هذا فحسب إذ أن فوكو يعد من أهم الفلاسفة الذين أدخلوا الفلسفة إلى أماكن لم تتطرق لها من قبل من قبيل: البحث في تاريخ الجنون، أو البحث في شؤون السجون، أو مولد العيادة والجنس، أو البحث في شؤون السلطة بشكل مختلف عما سبقه. وفي هذه الدراسة سنتناول رؤية فوكو للسلطة، وكيف أنه جعلها رأساً على عقب، وخاصة في نظرتة إليها من الأسفل إلى الأعلى بعكس النظرة التقليدية للفلاسفة الذين ادعوا رؤية كلية للسيادة من الأعلى (Lentricchia, 1988, p: 68).

فبالنسبة لفوكو، يعتبر الهيكل الاجتماعي هو السياسة الدقيقة للسلطة، وبعبارة أخرى، فإن علاقة السيادة، سواء بمعناها الأوسع أم الأضيق، ما هي إلا محصلة قوى الجسد الاجتماعي. (Gordon, 1980, p:104) وعلاوة على ذلك، فإن العلاقة بين السلطة والمعرفة تعد من أهم إسهامات فوكو لعصر ما بعد الحداثة. فبالنسبة له فإن كل من السلطة والمعرفة تخول كل منهما الآخر. فالمعرفة تتوقف عن كونها شكل من أشكال الحرية، وتصبح نوع من أنواع العبودية. ويعد هذا بداية انشغافه وتحوله عن فلسفة كارل ماركس (Gordon, 1980, p: 88).

والحقيقة أنه تعرف على السلطة أثناء بحثه عن المعرفة، كما درس خطابات الجنون والعبادة والجنس والعقاب من منظور العلاقة بين السلطة والمعرفة. يقول فوكو: إن الإنسانية الحديثة تخطئ في رسم خط بين المعرفة والسلطة، وذلك لأن المعرفة والسلطة يتكاملان مع بعضهما البعض، وليس هناك نقطة تتوقف فيها المعرفة من الاعتماد على السلطة؛ وهذا طريقة لإحياء الإنسانية بزيتها الطوباوي. كما يصر فوكو على أنه ليس من الممكن ممارسة السلطة من دون المعرفة، وأنه من المستحيل على المعرفة أن لا تولد سلطة (Gordon, 1980, p: 52).

هذه النظرة بعيدة كل البعد عن النظرة التقليدية التي انتقدها فوكو بشكل حاد عندما قال: لقد كان تقليداً أن تفترض الإنسانية أنه بمجرد أن يكسب شخصاً ما السلطة، فإنه يتوقف عن المعرفة، وإن السلطة تدفع على الجنون، وأن أولئك الذين يحكمون عمي. ويقول في هذا: فقط

أولئك الذين يحافظون على مسافة من السلطة وأغلقوا أبواب الديكتاتورية خلفهم لم يتورطوا في الطغيان، هؤلاء فقط يمكنهم أن يكتشفوا الحقيقة. (Gordon, 1980, p:51)"

إن هذا الإنتاج الفلسفي ما كان له أن يكون لولا سعي فوكو إلى سبر أعماق المعرفة عبر تاريخ الفكر للكشف عن الثوابت غير المنظورة التي سيعزو إليها سلطة التحكم في إنتاج وتنظيم المعارف المختلفة في كل فترة تاريخية، وهو الأمر الذي تجلى في أعماله، مولد العيادة، والسجن، والمراقبة والعقاب، وتاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، وتاريخ الجنسانية، وحفريات المعرفة. كل ذلك يشير إلى بصماته الخاصة به، وتميزه عن غيره رغم تأثره بعدميات نيتشة وهيدجر.

وهكذا فإنه من الممكن القول أن فوكو أعاد النظر بالتراث الفلسفي الحديث بطريقة التفكيك والنقد، وهو ما جعله أكثر مصداقية في فهمه للإنسان بوصفه محاطاً بالنسق، وإن التغييرات لا يشكها الأفراد بشكل مجرد، بل هنالك منظومة من الأنساق تزداد قوة وسلطة، وهي من تحيط وتؤثر في صناعة الحدث والواقع، وتكتف أيضاً بدورها الإبداع والتطور ذاته. كل هذا بسبب أن فوكو كان قد رفض الاجتهاد في إثبات فكرة ما من أفكار سابقة أو لاحقة، كما أنه رفض استمرارية عقل المتشابهات؛ إذ لم يعد في نظره من أمل يرجى من إنسان تناثرت معتقداته وتراجعت ملكاته وأحاسيسه الجمالية والذوقية.

هذا في الوقت الذي لم تعد تنظيمات الإنسان السياسية، ونوازه الأخلاقية تفي بالمراد وتجيب على حاجياته بالشكل المطلوب. لهذه الأسباب قام فوكو بدراسة الخطاب من العلاقات القائمة بين عناصره لتكوين نسق. وليس ذلك بالتخلي عن النظريات والآراء القديمة بقدر ما هو السعي إلى تكوين صورة حديثة للخطاب ذاته (فوكو، 2003).

إن هذه الوجهة البنيوية عند فوكو وما أضفته اللسانيات البنيوية على اللغة، كانت مصدر إلهام للعديد من المفكرين بأن فتحت طرقاً جديدة لسبر أغوار موضوعاتهم ذات العلاقة بالمجتمع والثقافة والإنسان والأدب والعلوم والمعارف الأخرى، وذلك على فرض أن مظاهرها أو طبيعتها تقترب من مظاهر أو طبيعة اللغة إن لم تكن ذاتها. وبهذه الطريقة فقط أمكن لفوكو دحض الفكرة التقليدية للسلطة، وذلك من خلال عملية تفكيكها وإعادة بناءها (عملية الهدم والبناء). وقد جاء هذا لأنه لم يتصور الفلسفة كخطاب عن العالم، بل كعمل حفري للتحقق من خطابات العالم، وهو الأمر الذي مكّنه من فكر وإظهار الطابع الأيديولوجي لمفهوم سلطة المؤسسات والقانون، التي بدأت منذ هوبز عندما وضع مفهوم الدولة التنينية Leviathan الذي يعتمد مفهوم العقد الاجتماعي فيه على تنازل المحكوم عن حقوقه لصالح الملك تنازلاً مطلقاً (السيد، 2011، ص:14).

مفهوم السلطة

يشكل اهتمام فوكو بمسألة السلطة والمعرفة جزءاً من الاهتمام بالسلطة وعملياتها وإجراءاتها، الذي هيمن على النقد ما بعد البنوي في الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين، وقد كتب فوكو طوال مسيرته كمؤرخ، كتباً عديدة حول نشأة طب الأمراض العقلية، أصول وتطور الطب العيادي، تطور البيولوجيا وعلوم الاقتصاد، ظهور نظام السجن الحديث، وغيرها من التطورات الاجتماعية الهامة التي تعود إلى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، أو ما يُعرف بعصر الأنوار أو التنوير. كما ركز فيها على ما اعتبره رغبة التنوير في تأسيس الإجراءات التي تقنن بواسطتها مجتمعاتنا نفسها على نحو عقلاني ومنظم.

ففي هذه الأعمال الفكرية، كان فوكو يهدف إلى كشف تغلغل السلطة ونشاطها في اللغة والتعبير ومصطلحات التشخيص، "الموضوعية" في ظاهرها، التي طورتها فروع العلوم الإنسانية المختلفة وهي تنمو وتتشعب في النصف الأول من القرن التاسع عشر. وبنظره، فإن هذه العلوم الجديدة التي تضم طب الأمراض العقلية، علم الإجمام، الطب، بيولوجيا الإنسان تتسم بالقمع والكبت، لأنها خلقت معايير عامة، ومثلاً لا تدرك ولا تنصف الاختلاف بين طبيعة وتجربة الأفراد والجماعات، وبين الأوساط التي تعيش فيها؛ فهي تفرض تعريفات علينا قد نفضل رفضها، فغدت هذه العلوم الإنسانية الجديدة قوالب ضيقة -مثل سترة المجانين- والغريب أننا نتقبلها ونتقمصها مقتنعين وحتى مسرورين (بارتنس، 2005، ص:56).

وكما يشير جيل دولوز فإن ميشيل فوكو يكون بما قدمه أول من أشار إلى القوالب الضيقة بابتكاره مفاهيم جديدة مثل المفهوم الجديد للسلطة، وهو المفهوم "الذي كان ضالة الجميع، الكل في بحث عنه دونما اهتداء إليه أو معرفة بالسبيل المؤدي إلى اكتشافه أو حتى التعبير عنه" (دولوز، 1987، ص:30). والواقع أن فوكو لا يسعى إلى بناء تحليله للسلطة في نظرية معينة. بتعبير آخر: إنه لا يقصد أن يقدم لنا وصفاً لا سياقياً، لا تاريخياً أو موضوعياً، ولا تعميماً يمكن أن ينطبق على التاريخ كله. وربما يمكن تفسير هذا من خلال أن فوكو يرى السلطة عبارة عن علاقة قوى، وأن كل علاقة قوى هي بالضرورة علاقة سلطة، لذلك فإن سؤال الماهية الذي يمكن طرحه على السلطة: ما السلطة؟ يجب أن يصبح سؤالاً عن الكيفية التي بها تتحقق السلطة أو تمارس نفسها وتظهر إلى الوجود بالفعل (دولوز، 1987، ص:77).

إن السلطة عند فوكو ليست ظاهرة واحدة موحدة ومنسجمة كهيمنة الفرد على مجموعة أو مجموعة على مجموعة، أو طبقة على طبقة، بل إن السلطة شيئاً لا يمكن تقاسمه أو توزيعه بين من يملكها، أو يمارسها، أو يخضع لها، وما يقابلهم. إن السلطة شيء حركي منتشر ومتداول كالسلسلة لا تتموضع في مكان ما، وإنما تتغلغل في النسيج الاجتماعي بحيث يأخذ الأفراد وضع

الخاضعين ووضع الممارسين لها في نفس الوقت. مما يعني أن السلطة الفرد أو العكس فالفرد أثر من آثار السلطة، كما أنها تنتقل بواسطة الأفراد الذين شكلتهم (فوكو، 2003).

فوكو والمفهوم الماركسي للسلطة

يعارض فوكو كل من النظرية الماركسية، والنظرية البرجوازية، ونظريات الحق الطبيعي، في تفسير السلطة، فالنظرية البرجوازية تتمثل السلطة في شكل مفاهيم ثابتة مقدسة كالدساتير والقوانين وغيرها، بينما ترى النظرية الماركسية أن لا يمكننا الحديث عن السلطة ما لم تكن هناك دولة تمارس هذه السلطة، وهي ممارسة قمعية بالدرجة الأولى، لذا فهو يؤكد على أنه لا وجود لذات أو لفاعل يملك السلطة، مثلما لا وجود لجهاز (الدولة) ينفرد لوحده باستعمال السلطة. ويرى فوكو أن التفسير الماركسي للسلطة غير كافٍ، إذ ينبغي إضافة شيء جديد له، ولذا عمل على تجزئة مفهوم السلطة إلى وحدات مصغرة من أجل حل اللغز، والكشف عن السر أو بالأحرى من أجل أن يتجنب ترديد المقولات الماركسية الكلاسيكية. فهو لا يريد البحث عن سر السلطة في أعلى ذراها؛ أي في جهاز الدولة، إنما يريد البحث عنها في القاعدة. وهنا يؤكد فوكو أن الطريق الأمثل لمعرفة آليات السلطة هو تجزئتها إلى وحدات صغيرة يسهل إمكانية ملاحظتها ودراستها وفهمها في النهاية (MacDonald, 2006).

يقترح فوكو نموذجاً استراتيجياً للسلطة، فلا ينبغي النظر إلى السلطة كملكية قارة ومستقرة في يد ذات فردية أو جماعية، وإنما يجب التفكير في السلطة كإنتاج لاستراتيجيات الصراع بين القوى. يتحدث نيتشه عن تعدد علاقات القوى وكثرتها، بحيث لا تنبع من ذات واحدة ممتلئة للقوة. فالسلطة هي علاقات قوى بحيث أنها تشكل نظاماً وتسلسلاً، أو انقطاعاً وانفصالاً. إنها منبثة في كل العلاقات الاجتماعية والرمزية المتصادمة. لا تُفرض السلطة من فوق، بل تأتي من تحت، لا تنجلي في العلاقات الثنائية بين الحاكمين والمحكومين، بل بالأحرى في علاقات القوة المجسدة في آليات الإنتاج داخل الأسرة، والمجموعات الصغيرة، وداخل المؤسسات، وتسري في الجسد الاجتماعي بأسره: "إن القوة تأتي من تحت، ومن ثم لا ثنائية ولا تعارض بين السائدين والمسودين في جذور علاقات القوة، ولا ثنائية تنطلق من القمة إلى القاعدة". فالسلطة هي دوماً شكل خاص ومؤقت لصراع ما يفتأ يتكرر، والصراع المتكرر بكيفية دائمة لا يسمح باستقرار السلطة فهناك حرب لا هوادة فيها، دائمة ومستمرة من أجل السلطة، وامتلاكها رهين بالشروط المتغيرة، والاستراتيجيات المتقلبة، السلطة علاقة، والعلاقة تتغير باستمرار، لا يمكن الحديث عن مركز السلطة أو سلطة المركز، فهي منبثة ومنتشرة في كل مكان، وفي داخل الجسم الاجتماعي برمته. وبهذا المعنى فالسلطة غير منضبطة لحدود "السياسي"، إنها تتجاوز تخومه (Foucault et al, 1980, pp: 51-53).

ميكروفيزياء السلطة

تعني هذه الميكروفيزياء أن السلطة مجهرية تخترق العلاقات الإستراتيجية ضمن صراعات الحياة اليومية، الميكروفيزياء تضيف على السلطة طابع التعدد والكثرة، بمعنى وجود عدد لا نهائي من نقط المواجهة وبؤر عدم الاستقرار، ومن ثم تحتل كل واحدة منها مخاطر الصراع، وتحدد الطابع الزمني المؤقت للعلاقات القوة. لا تخضع ميكروفيزياء السلطة إلى منطق "الكل أو لا شيء": فهي لا تخضع للمراقبة والتحكم في أجهزة أو مؤسسات، ولا تقاس سوى بمفعولاتها. هناك حرب دائمة من أجل امتلاك السلطة، كل سلطة هي في محك دائم، وفي اختبار دائم لاستمرارها في بؤرة قوة أخرى، ولا يمكن للعلاقات القوة أن تستقر -ولو إلى حين- سوى بواسطة ما يسميه فوكو بـ"المأسسة" (Institutionalization).

وهنا يشير إلى أنه ليس من الممكن حسم الصراع، أو علاقات القوة بين طرفين بواسطة التوافق (Consensus) أو بواسطة المناقشة والمناظرة، أو ما يسمى بالتواصل عند هابرماس، بل عن طريق تفوق غاية أحدهما على الآخر، أي تحقيق أغراض أحدهما على حساب الآخر؛ بعبارة أخرى: لا وجود لاعتراف معياري بمشروعية ما (عبد العالي، 2008). فكيف يمكن مأسسة السلطة وهي فاقدة للمشروعية، أو على الأقل ليست موضوع توافق. بالنسبة لفوكو، هناك علاقة جدلية واضحة بين السلطة والمعرفة، وهما ليستا منفصلتين عن بعضهما البعض كما تنوهم عادة، فنحن نعتقد أن السلطة جاهلة أو عمياء لمجرد أنها سلطة، وأن المعرفة عزلاء لا هدف لها إلا الحقيقة، ولا سلطة لها، وهذا خطأ ينبغي تصحيحه. كما يرى فوكو أن هناك تمحوراً دائماً للسلطة حول المعرفة، وتمفصلاً للمعرفة حول السلطة، وأن ممارسة السلطة تنتج دائماً نوعاً من أنواع المعرفة بدورها تفصح عن أثر من آثار السلطة، وبالتالي فإن ممارسة السلطة تؤدي -ولو بشكل غير مباشر- إلى تراكم معلومات وتقنيات تشكل في التحليل النهائي شكلاً من أشكال المعرفة، أما ممارسة المعرفة فينتج عنها أيضاً نوع معين من السلطة كما هو الحال في مثال أستاذ الجامعة الذي يمتلك سلطة إجازة أو عدم إجازة الطالب. وهنا يكشف فوكو عن الملابس السلطوية لكل أنواع المعرفة السائدة، فالمعرفة لا توجد في جهة، والسلطة في جهة أخرى، وإنما المعرفة هي بحد ذاتها سلطة، والسلطة تكون قادرة على جلب المعرفة إلى جانبها، وهكذا الإنسان عندما يتوصل إلى المعرفة يستطيع أن يتحول إلى نوع من السلطة في مجتمعه، ويصبح الآخرون يهابونه ويحترمون أكثر، بل ويستطيع أن يستغل معرفته أو شهرته لأغراض مادية إذا ما أراد، والإنسان الذي يمتلك السلطة يستطيع أن يجذب إليه كبار العلماء وأن يستغل معرفتهم في ترسيخ سلطته إذا ما أراد.

ففي الماضي كان الكاهن المسيحي هو الذي يخلع المشروعية على السلطة السياسية، أما في مجتمعات الحداثة التي تشكلت بعد الثورة الفرنسية فقد أصبحت العلوم الإنسانية هي التي تخلع المشروعية على مؤسسات السلطة، أما في العصور الحديثة فيشير فوكو إلى استخدام العلوم الإنسانية لخلق المشروعية على سلطة التدجين والقمع السائدة فيها، وبالتالي فهناك تواطؤ بين مختلف أجهزة المجتمع ومؤسساته: كمؤسسة البصمات العقلية، ومؤسسة السجن، ومؤسسة الثكنة العسكرية، ومؤسسة المدرسة، ومؤسسة المشغل الحرفي أو المصانع، وحتى مؤسسة البوليس والمخابرات (Gordon, 1980).

يبرز الفكر الما بعد حدثي لدى فوكو في تشريحه لفيزيونومية السلطة بوصفها مظهرًا من مظاهر الحداثة، وفي تبيان أن ما يسودها هو القوة، أو علاقات القوة والتفوق والتغلب، وبالتالي التحكم والمراقبة والعقاب، وهذا ما دفع "جيل دولوز" إلى اعتبار فوكو نيتشوي المنزع فيما يخص تحليله وتفكيكه لآليات السلطة، فهو ينكر المعايير القانونية، والاتجاهات الأخلاقية، ويقصدها من مضمار السلطة بسبب عجزها عن تنظيم العلاقات بين أعضاء المجتمع، ويعتبرها مجرد أوهام، بل إنها لا تعمل سوى على إخفاء وتقنيع العلاقات الإستراتيجية الخفية.

ويذهب فوكو مذهب نيتشه في تصور السلطة، فهي تارة تستعمل الوهم أو الأيديولوجيا والخداع، وتارة تتوسل بالعنف، مرة تلجأ إلى القوة الفزيائية وأخرى تستعمل الخداع المحوسب من أجل إخضاع الإرادات المعارضة لغاياتها. ويمكن أن نقارب في هذا الصدد بين فوكو وأدورنو، فالسلطة، وتبعاً لاستراتيجيات قمعية معقدة، تشتغل في المجتمعات الحديثة بكيفية تسمح بإخضاع القوى المناوئة، فلا مجال للتوافق أو للاعتراف المتبادل بالقيم المشتركة للقوى المتصارعة، وتحمل السلطة - في منظور فوكو - طاقة سلبية تنفي كل ما يعاديه ويعارضها، ولا تجيز فعل سوى ما تسمح به، فهي تحتوي على تقنيات قمعية وعلى طرق غير مباشرة لنفي الحاجات الحيوية، تمارس السلطة قمعها من خلال تحريض الذوات المسلووبة الإرادة على مزيد من الإنتاجية والنجاعة والمردودية (عبد العالي، مجلة مدارات فلسفية، العدد 13).

معارضة فوكو لنظرية الحق والتصور القانوني للسلطة:

إن تصور فوكو للسلطة يعلن نهاية الإشكالية الحديثة للسلطة، التي تنتظم حول التقابل الرئيسي: بين المجتمع والحقوقي من جهة، وبين الدولة والقانون من جهة أخرى، ويعلن من جهة ثالثة بداية لبراديجم جديد للسلطة، فإذا كانت السلطة توجد في كل مكان وتخرق طرفيها المهيمن والمهيمن عليه، وأن الشرعية والاضطهاد هما وجهان لعملة واحدة إن لا يختلفان من حيث الماهية. وإذا كانت الدولة لم تعد اللحظة الحاسمة ولا الدالة في السلطة، فإن هذا يقتضي بل ويستدعي بالضرورة إعادة التفكير من جديد في السياسة، وإعادة تعريف للسلطة.

ويشير دولوز في تعليقه حول أعمال فوكو المتعلقة بالسلطة قائلاً: "إن القاسم المشترك بين الجمهوريين وبين المونارشييين في الغرب، يتمثل في إعلانهما من شأن القانون إلى مرتبة مبدأ السلطة، وذلك من أجل جعل هذه الأخيرة تقدم نفسها في صورة تمثّل قانوني متجانس"، ويضيف دولوز أن "فوكو لم يساهم بتاتاً في تقديس "دولة الحق"، فهو يرى بأنّ التصوّر الذي يستند إلى الشرعية ليس بأفضل من التصوّر القمعي للسلطة، فنحن هنا أمام نفس التصوّر في الحالتين معاً". "إن فوكو يبيّن بأنّ القانون لا يمثّل حالة سلم يمكن اعتبارها أفضل من تلك التي تفرضها حرب مبروحة، بل إنّ القانون يمثّل الحرب ذاتها، بل هو بالفعل إستراتيجيتها".

إنّ ما قاله دولوز يعبر عن طبيعة الموقف المعاصر المضاد "للنزعة القانونية"، وهو ذاته موقف كل من نيتشه وفوكو، يتأسس هذا الموقف على رفض للتقابل الذي أقامته الحداثة السياسية ما بين تصور تقليدي للقانون من حيث أنه يمثّل اللحظة الأساسية للحكم، وما بين فكرة "الحرب" الدائمة الملازمة لكل تنظيم اجتماعي، بل أكثر من ذلك، إذ يعتبر هذا الموقف -والذي يمكن أن نعتقه بموقف ما بعد حداثي- القانون بوصفه الشكل الراهن للحرب، ينتهي هذا التصوّر إلى تفكيك التحديد الكلاسيكي للحق، فلقد سبق لهويز أن طرح القانون كنهاية للحرب، وكل المفكرين الحداثيين من بعده سطروا على هذه المسألة، أي مسألة اعتبار أن الحق/القانون ينهي الحرب ويضع حدّاً لحالة الطبيعة.

وحده سبينوزا أبدى تحفظه اتجاه هذه المسألة، حين رأى أن الحق لا يؤدي إلى إلغاء حالة الطبيعة، وإنما يؤدي فحسب إلى تغيير في الطريقة أو الكيفية التي تدار بها السلطة. يقول فوكو: "إنّ التحليل بالألفاظ السلطة لا يجب أن يسلم كمعطيات أولية، سيادة الدولة، والشكل القانوني والموحد الشاملين للهيمنة، فهذه الألفاظ ليست إلا أشكالاً نهائية (دولوز، 1987 ص 77-90)".

وفي السطور التالية سنناقش ما شكك فيه فوكو من مسلمات كانت تقوم عليها السلطة من قبله. من هذه المسلمات كما جاءت في كتاب المعرفة والسلطة: مدخل لقراءة فوكو لجيل دولوز (يفوت، 2005):

1- مسلمة الملكية:

ومفادها أن السلطة "في ملك" طبقة، وملكيّتها لها أساسها الغلبة، بالنسبة لفوكو، السلطة لا تمارس نفسها بهذا النحو ولا انطلاقاً منه، فهي إستراتيجية أكثر منها ملكية، ولا ترجع آثارها ومفاعيلها إلى تملك ما، "بل تعود إلى تدابير وحيل ووسائل وتقنيات وأعمال" "فهي تمارس أكثر مما تملك، ليست حقاً تحتفظ به الطبقة السائدة وتحتكره، بل هي مفعول مجموع مواقعها الإستراتيجية"، وتعبير فوكو نفسه فإن "السلطة ليست مؤسسة، وليست بنية، وليست قوة معينة يتمتع بها البعض: إنها الاسم الذي يطلق على وضع إستراتيجي معقد في مجتمع معين".

وهكذا فإن عمل فوكو يمثل خروجاً جذرياً عن الأساليب السابقة لتصوير السلطة، ولا يمكن دمجها بسهولة مع الأفكار السابقة، حيث أن السلطة تكون منتشرة بدلاً من أن تكون مركزة، ومتجسدة وسارية بدلاً من أن تكون مملوكة، خطائية وليست قسرية بحتة، وتشكل وكلاء بدلاً من تنتشر بواسطتهم (1) (Gaventa, 2003, pp: 1).

لقد كان فوكو في مواجهة فكرة أن السلطة يمارسها الناس أو الجماعات عن طريق "العرضية" أو "السيادية"، أفعال الهيمنة أو الإكراه، حيث نظر إليها على أنها مشتتة ومنتشرة. "السلطة في كل مكان" و"تأتي من كل مكان" فهي في هذا المعنى ليس وكالة ولا هيكل (1998 Foucault pp: 63).

وفيما يتعلق بالاحتياط المنهجي الثالث، فإن السلطة لا ينبغي أن تؤخذ لتكون ظاهرة هيمنة الفرد الموحدة والمتجانسة، أو غيرها، أو فئة واحدة، أو فئة أكثر من غيرها. وعلى النقيض من ذلك، ينبغي دائماً أن نأخذ في الاعتبار أن السلطة، إذا لم نأخذ نظرة بعيدة عنها، ليست تلك التي تعمل الفرق بين أولئك الذين يمتلكونها أو يحتفظون بها حصرياً، والاحتفاظ بها، وأولئك الذين لا يملكونها أو خاضعين لها، يجب تحليل السلطة على أنها شيء يتداول، أو شيء يشتغل على شكل سلسلة، إنها لا تقع هنا أو هناك، ولا في يد أي شخص أبداً، ولا يمكن تخصيصها كسلعة أو قطعة جزء من الثروة.

يتم استخدام السلطة وممارستها من خلال شبكة تشبه منظمة، وليس فقط الأفراد يتنقلون بين خيوط هذه الشبكة؛ فهم دائماً في موقف ممارستها والخضوع لها في نفس الوقت، فهم ليسوا فقط أهدافها الخاملة أو الموافق عليها؛ ولكنهم دائماً العناصر التي تشكل تشابكاتها. وبعبارة أخرى، الأفراد هم مركبات القوة، وليس نقاط تطبيقها (98) (Gordon, 1980: pp).

2- مسلمة انحصار موقف السلطة وتميزه:

ومفادها أن السلطة هي سلطة الدولة، وأنها تتجسد في جهاز الدولة، لا تتمتع إلا بانفصال مظهري عن سلطة هذه الأخيرة، لهذا فهي أجهزة خاصة في يد الدولة، على العكس من هذا، يؤكد فوكو أن الدولة ذاتها مفعول وأثر للمجموع، ونتيجة للكثير من الدوايب والبؤر التي تجد موضعها في مستوى مختلف أتم الاختلاف عن ذلك الذي توجد فيه السلطة، وتمثل من جهتها أساساً لا مرئياً لها، أي ميكروفيزيائية السلطة. إذن السلطة هنا سلطة منتشرة ومبثوثة في الجميع وبين الجميع، هذا المفهوم يجعلنا نوسع النظر حين نبحث عن السلطة، سنجدها كعلاقة بين كل الأفراد والمؤسسات والأفكار.

وقد لخص فوكو الخمس الاحتياطات للسلطة وقال: أود أن أقول أننا يجب أن نوجه أبحاثنا عن طبيعة السلطة، وليس الجانب القانوني لها، وأجهزة الدولة والأيدولوجيات التي ترافقها، ولكن نحو الهيمنة والمشغلات المادية للسلطة، نحو أشكال الخضوع والانعكاسات والاستخدامات لأنظمتها المحلية، ونحو الأجهزة الاستراتيجية، ويجب أن نتجنب نموذج ليفيathan في دراسة السلطة (Gordon, 1980:pp 102). كما يجب علينا أن نهرب من الميدان المحدود للسيادة القانونية ومؤسسات الدولة، وأن نبني تحليلنا للسلطة على دراسة تقنيات وتكتيكات الهيمنة. (Gordon, 1980:102).

3- مسلمة التبعية:

ومفادها أن السلطة المتجسدة في جهاز الدولة تابعة لنمط إنتاج ما يعد بالنسبة لها بنية تحتية، في المقابل يرى فوكو أنه "ليست علاقة السلطة في موقع براني بالنسبة لباقي أنواع العلاقات.. ولا تحتل موقع بنية علياً... بل توجد حيثما تلعب مباشرة دوراً منتجاً". لا يستطيع فوكو إنكار دور نمط الإنتاج في السلطة، ولكنه يقدم بدلاً عن الهرمية التي ما انفكت تطبع التصور الماركسي، تحليلاً وظيفياً يعتمد المحايثة أو المثل الثاوي، حيث تشكل بؤر السلطات والتقنيات التأديبية عدداً من القطاعات المترابطة فيما بينها، والتي يمر منها أفراد مجموعة ما، أو يقيمون بها أبدانهم وأنفسهم (كالأسرة والمدرسة والثكنة والمصنع والسجن إذا لزم الحال). وهنا يقول فوكو: في مجتمع مثل بلدنا، ولكن أساساً في أي مجتمع، هناك علاقات متعددة مترابطة للسلطة التي تتخلل، وتميز وتشكل الجسد الاجتماعي، وهذه العلاقات السلطوية لا يمكن أن تؤسس أو توحد أو تنفذ دون إنتاج وتراكم وتداول وتوظيف الخطاب (Gordon, 1980: pp 93).

4- مسلمة الجوهر والأعراض:

ومفادها أن للسلطة جوهرًا، كما أنها عرض يظهر على أولئك الذين يملكون زمامها (الغالبون) من خلال تمييزهم عن أولئك الذين تمارس عليهم تلك السلطة (أي المغلوبين). خلافاً لهذا يؤكد فوكو أن ليس للسلطة جوهرًا بل هي إجرائية ليست عرضاً، بل إنها علاقة: وعلاقة السلطة هي مجموع علاقات القوى التي لا تخترق القوى الغالبة أكثر من اختراقها للقوى المغلوبة، ومهما يكن فإن هناك العديد من المسلمات الخاطئة التي تميز موقف اليساريين (Deleuze, 1988, pp. 24-5). من هذه، الصورة الدوغماتية للفكر اليساري التي تفترض أن السلطة هي ملك يمكن أن تتناوله الطبقة الاقتصادية؛ أي أن السلطة تقع في آليات الدولة، وأن القوة الاقتصادية تخضع لسلطة الدولة؛ بمعنى أن السلطة تنتقل من المهمنين إلى المهمين عليهم؛ وأن البرجوازية تحافظ على السلطة من خلال العنف أو الإيديولوجية؛ وأن الهدف الثوري هو كسب السلطة وتثبيت آلية قانونية جديدة.

ويعترف دولوز بأن ما عقبه ماركس هو أن العديد من اليساريين يعيدون التفكير في المفاهيم السياسية الرئيسية، ومع ذلك، فإن دولوز ينتقد اليساريين الذين يحتفظون بعناصر معينة من الماركسية - اللينينية أو يعيدون إدماجهم، مثل الطلب على المركزية العامة (Deleuze, 1988, pp:24-30). إن نقد دولوز لهاردت ونيجري، هو أنهم يؤيدون مسلمات الماركسيين - اللينينيين حول البروليتاريا، والثورة، ونهاية السيادة (MacDonald, 2006, pp. 113-37).

5- مسلمة أنماط التأثير:

ومفادها أن السلطة تتصرف بعنف أو تمارس نفسها كأيديولوجية، تارة تقمع، وأخرى تموه، أو تخدع وتوهم، تارة تتقمص زي الشرطة، وطوراً تتجسد في هيئة دعائية، فالعنف مظهر أو أثر للقوة المسلطة على شيء ما، موضوعاً كان أم كائناً. وبهذا المفهوم للسلطة نستطيع أن نتعرف على أوجه وأشكال سلطة المعرفة، أو سلطة أنظمة المعرفة، هذه السلطة التي فعلت على طول التاريخ فعلها بقوة وبمستويات عالية من التأثير، ولكن لا يمكن سبرها والتعرف على فعاليتها إلا من خلال الفهم الحديث للسلطة (فوكو، 2005).

ومن هنا يأتي التعريف الأكثر شمولية واتساعاً، الذي يقدمه ميشيل فوكو، حيث يعرف السلطة أو النفوذ بالقدر على الفعل والتأثير من قبل الفرد أو الجماعة من خلال ديناميكية التفاعل الاجتماعي في العلاقات الاجتماعية، والذي يمكن أن يتغير أو أمكانية إعادة تشكيله بصورة أخرى، فالسلطة بتعريف فوكو تعتمد اعتماداً وثيقاً على المصادر، (مصادر السلطة)، وهي المال، المعرفة، الكاريزما، السلطة السياسية، العلاقات الاجتماعية وحتى الوضع الاجتماعي، فهذه يحددها مجتمع ما في طبيعة تركيبته كأن يكون الوضع الاجتماعي مثلاً، فالعائلة تلعب دوراً كبيراً في مجتمع ما (Foucault, 1978, pp: 121).

يتضح من ذلك أن فوكو لا يقصد بالسلطة مؤسسات السلطة المعروفة، وهذا ما يؤكد بقوله: "أنني لا أعني بالسلطة ما تعودنا على تسميته بهذا الاسم، أي المؤسسات والأجهزة التي تمتلك سلطة الإكراه، داخل الدول، ولا أقصد نوعاً من الإخضاع الذي يقابل العنف، ولست أقصد نظاماً من الهيمنة يمارسه عنصر على آخر، أو جماعة على أخرى، بحيث يسري مفعوله بالتدرج في الجسم الاجتماعي (Foucault, 1978, pp: 123).

مقاربة فوكو للعلاقة بين السلطة والمقاومة والثورة:

المقاومة بوصفها المعادل الموضوعي للسلطة:

عند فوكو، تستند المقاومة على الحياة وبما هو حي كحاجات أساسية كجوهر الإنسان المحسوس وإنجاز لإمكاناته وككمال للمكان، ولم تعد نضالات باسم العودة إلى الحياة القديمة، أو تبعاً لأحلام عريقة بدورة ومنية، أو عصر ذهبي (فوكو، 1990، ص: 146). وفي الحديث عن المقاومة، تساءل فوكو عن ضرورة معرفة ماذا نقاوم، فهو يرفض المفهوم القديم للسلطة يوصفها كائناً تنينياً خرافياً يمثل روح الدولة التي تتحكم برعاياها (بغورة، 2000، ص: 215-267).

وهنا يبدأ فوكو بتحديد فهمه للمقاومة، فإذا كانت السلطة منتشرة، فالمقاومة يجب أن تنتشر في المقابل، وإنه يجب أن ننتبه إلى أن المقاومة ليست مادة مصادرة للسلطة، إذ أنها تكون منتجة ومتحيزة كالسلطة تماماً، بل وتستخدم أساليبها كذلك (Pickett, 1996, pp: 456). وعليه فحيثما وجدت السلطة وجدت المقاومة، وهي ليست على الإطلاق في موضع الخارج بالنسبة للسلطة، ومهما يكن، فإن المقاومة عند فوكو تعتمد على إنتاج وبناء معرفة استراتيجية-جيوولوجية للمعقول مقابل البناء المعرفي للمعقول الذي تسلكه السلطة في خطاباتها. وهكذا فإن المقاومة - بما تتضمنه من معرفة جيوولوجية مصادرة، ومعرفة استراتيجية لوظيفة السلطة- تعمل على تشجيع ممارسات أكثر فعالية، وقد بدا هذا واضحاً في كتابه (المراقبة والمعاقبة)، حيث استطاع أن يقدم أدوات تفكيكية لتفكيك أي سلطة ومقاومتها، وليس ذلك لإنتاج الحقيقة، أو إنتاج نظرية عالمية، وإنما باعتباره أداة إضافية لمقاومة السلطة.

وهكذا فإن فهم فوكو للمقاومة وأدائها يعتمد على تحليله المختلف لطبيعة السلطة، وهو بهذا إنما يقدم المقاومة بوصفها نموذجاً معرفياً بديلاً لنموذج السلطة، حيث يقاوم الأفراد خطاب الحقيقة الذي تقدمه السلطة. كما يشير فوكو إنه على الرغم من الأشكال المتنوعة للمقاومة: ممكنة وضرورية، وغير متوقعة وعفوية، ومتوحشة ومعزولة ومدبرة وزاحفة، وعنيفة وغير قابلة للمصالحة، أو سريعة الفعل أو ذات مصلحة ما، أو العكس، لكنها لا يمكنها أن توجد إلا في الحقل الاستراتيجي لعلاقات السلطة، وبدون شك فإن الترميز الاستراتيجي لنقط المقاومة هو الذي يسهل قيام ثورة ما، مثلما أن الدولة تقوم على التكامل المؤسسيات لعلاقات السلطة (Pesses, 2017).

ولكن ما الذي يمكن استخلاصه من فوكو، وخاصة في الربط بين السلطة والمقاومة، وأخيراً الثورة؟

إن ما نستلهمه من فوكو أن تغيير السلطة، أو حتى محاولة التأثير عليها يتطلب الزحف من الأسفل إلى الأعلى في البنى الاجتماعية المتراكمة والمتداخلة في بنية الدولة، فكما تتشكل السلطة

تتشكل المقاومة معها، وعلى طول خط للسلطة هناك خط موازٍ من المعرفة، وأن هذه المعرفة بحد ذاتها وجهاً آخر من أوجه السلطة أو المقاومة نفسها، وبشكل طوباوي لم يذكره فوكو فإن المقاومة أو الثورة -إذا جاز التعبير- قائمة دائماً وأبداً طالما أن هناك سلطة، وذلك لأن المقاومة ما هي إلا مرحلة من مراحل الثورة أو بلغة أخرى: المقاومة هي ثورة بطيئة الحركة لم تتأجج نيرانها بعد، تخمد وتثور اعتماداً على التعبئة المعرفية للبنى الاجتماعية، وليس ذلك فحسب، فإن المقاومة تغير في السلطة ولكن ببطء، وهل هناك معنى للثورة غير التغيير الذي يحدث في السلطة. ومن هنا فإنه لا يجب التمييز أو التفريق ما بين الثورة والمقاومة، وهو الأمر الذي لم يتطرق إليه فوكو.

وهكذا فإن أي نظام في أي وقت يكون في حاله من الثورة، فالثورة لا تعني خروج الناس إلى الشوارع أو الإطاحة بالأمير أو الحاكم، -كما حدث فيما يسمى بالربيع العربي- وإنما تعني التغيير المعرفي في إطار السلطة نفسها، وفي هذا يؤكد إن "المعرفة نتاج السلطة كما أن السلطة نتاج المعرفة في نفس الوقت" (أبو خاص، 2017، ص:97). ومهما يكن فإن مفهوم المقاومة يعزز من السلطة نفسها، فهو يجعلها أقوى في إطار ديالكتيكي غير مرئي، أن هذا مجرد ضمان للثوريين ورجال المقاومة في إحداث التغيير، ولكن ليس من حيث إحداث التغيير في رأس السلطة، ولكن من حيث إحداث التغيير في قواعدها والأقدام التي تسير عليها البنى المجتمعية التي تمتد بالسلطة، وفي هذا الإطار، يمكن القول أن الثورات التي يكون هدفها راس السلطة قد فشلت تماماً لأن السلطة ليست بالأشخاص وإنما بطبيعة النسيج الذي يشكلها، وهذا ينطبق تماماً على ثورات الربيع العربي.

والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا ينجح بعض ما نسميه ثورات بينما تسقط أخرى؟ وباختصار أن العامل الزمني يلعب دوره من حيث الوقت المبذول في عملية البناء المعرفي اللازمة لأفراد المجتمع، ففي غضون ذلك الوقت تحدث الثورة لوحدها وهي بذلك إنما تحدث بالأيدولوجيات الجديدة التي تنتجها البنى التحتية للمجتمع، ومن جهة أخرى، فإن الثورات التي تحدث فجأة وتفوز بالسلطة هي ثورات فاشلة تخدم بنية اجتماعية محدده ومصيرها الهزيمة، - وهذا ما ينسحب على التجربتين المصرية والسورية من وجهة نظر بحثية-. ومن هنا فقد تحققت الثورة الفرنسية لامتدادها على فترة زمنية طويلة، في حين فشلت تجربة ثورات الربيع العربي ولم تجلب إلا الهزيمة. وطالما أن المقابلة دائمة ومرافقة للسلطة فإن الثورات كذلك، وهذا يعني أن الثورات حادثة في كل مكان وزمان، هذه الثورة التي نتحدث عنها لم يتحدث عنها فوكو هي ثورة شعوب ما بعد الحداثة، وهي الثورة التي لا تحتاج إلى السلاح، لأن سلاحها الأول والأخير هو المعرفة. وأخيراً فإنه مهما حدث للسلطة فإن السلطة باقية، ولهذا فإن المقاومة والثورة لا تكون

على السلطة وإنما على المعارف التي تقوم عليها السلطة وذلك بتغييرها، وكما قال فوكو من الأسفل إلى الأعلى أو من القاعدة وحتى قمة الهرم.

إن تجربة ثورة الربيع العربي لم تكشف عما كانت تريد قوله ولم تقله، ولم تبين أين أصابت وأين أخطأت، بل بيّنت عما استبعده بالذات في ما هي تتكلم عليه، حيث حجبت بنيتها وسلطانها، بقدر ما أخفت كيفية تشكلها، أي البدايات التي تأسست عليها، أو الآليات التي استخدمتها، أو الألاعيب التي لجأ إليها الفاعلون، أو القوى التي وظفها المتلاعبون بها. ولا يعود هذا الحجب إلى قصور معرفي أو إلى خلل منهجي، بل هناك عائق وجودي يحول دون أن يكون خطاب الواحد أداة للتفكير وموضوعاً له في آن معاً، كاشفةً بذلك عما تمارسه الذات المفكرة، فيما هي تفكر فيه من الصمت والجهل والنسيان، وعما يتستر عليه العقل فيما يعقله ويستدل عليه من ضروب الحمق والجنون واللامعقول.

أسفرت ثورة الربيع العربي عن صوغ مفاهيم جديدة، سواء باستخدام مفردات قديمة بمعاني جديدة، أو بنحت مصطلحات جديدة، مثل الخطاب الأصولي، البلطجة، الفوضىّة الخلاقة، والذي هو مثار للالتباس والجدل، سواء من حيث مفهومه أو من حيث ترجمته إلى أرض الواقع، هذا اللفظ يعني على سبيل إعادة الابتكار، بقدر ما اشتغل على تشويه صورة الربيع العربي، والمصطلح لم يتعد إلى نظام معرفي، يمكن القول بأن هذه المصطلحات تعني كيفية التمثيل بين الكلمات والأشياء، بين الخطابات والموضوعات، بين الممارسات الخطائية والممارسات العملية، بين التشكيلات الخطائية وبين الانساق المعرفية والفروع العلمية. ولذا، فالمقاومة والسلطة هما اللتان تتيحان في عصر معين انتظام الخطابات وانجاس المعارف، أي هما اللتان تتيحان للأفكار أن تترتب وتتشكل وللعقليات أن تشتغل؛ وهما اللتان تعملان على زحزحة الفكر صوب اللامسكوت عنه في الفكر، والتوجه نحو اللامفكر فيه في التراث؛ وهما اللتان تفسران كيفية الانتقال من نظام معرفي إلى آخر، أو من حقبة فكرية إلى أخرى.

هذا ما تجلى بشكل خاص في ثورات الربيع العربي كان حصيلتها تغيير مفهوم السلطة من جانبيين: الأول أن السلطة لم تعد تفهم بوصفها تقتصر على الدولة بمؤسساتها وأجهزتها وشرطتها وقوانينها، ولا بوصفها مجرد نظام شامل للسيطرة (تتينا) من فرد على آخر، أو من جماعة على أخرى، بحسب تحليل فوكو للخرائط تفهم السلطة بوصفها جملة من (علاقات القوة) المحايثة والمنبثة في الفضاء الاجتماعي بكل مجالاته ودوائره ومؤسساته (فوكو، المراقبة والمعاقبة، 1990، ص: 237). بهذا المعنى تبدو علاقة الواحد بالآخر هي علاقة سلطوية تتشكل في المجال الذي تمارس فيه، من خلال لعبة المواجهات التي تدعمها، أو الاستراتيجيات التي تستخدمها لكي تفعل وتؤثر، أو لكي تترجم في جهاز مؤسسي، أو في شكل قانوني، أو في خضوع اجتماعي.

بهذا المعنى فإن عملاً فكرياً يسهم في تفكيك آليات السلطة وأشكال الهيمنة والمصادرة، كما فعل فوكو في كتاب (المراقبة والعقاب) هو أكثر فاعلية بكثير، في مجال التنوير والتحرير والتغيير، من الخطابات الايديولوجية النضالية التي تحدثنا عن الحرية والعدالة والاشتراكية والسلم بصورة مجردة، لا تمت بصلة إلى مجريات الواقع الحي، وعلى ما كان مصائر الشعارات والقضايا التي ترجمت بأصدائها لدى اصحاب المشاريع الشمولية والانظمة الأحادية(انظر: المرجع السابق، ص:241 وما بعدها. وهكذا فإن المسألة هي كيف يصنع المرء ذاته بتفكيك الاكراهات اللغوية والثقافية والسياسية والمجتمعية، التي تعيقه عن استثمار طاقته وممارسة حيويته الوجودية، بكل ابعادها الثقافية والمعرفية والسلطوية والفنية.

إن منظور فوكو حول العالم الثالث سيبدأ بمفهوم للتنمية على أساس النظام والطرق المبنية من أجل نشر السلطة في وسطها، ومن المفضل ذكر الفرضيات التالية من أجل بلورة هذا الموضوع:

1- يوجد طريقة عالمية للسيطرة التي تم تعريفها من قبل نظام السلطة ودمج الأفراد الذين تم تطبيعهم، ويجب اعتبار العالم الثالث جزءاً أساسياً لهذه الطريقة العالمية التي تهدف إلى فهم العوامل الخاصة لأشكال التطبيع.

2- تتزايد الأشكال الجديدة للسيطرة والخضوع في العالم الثالث باستمرار.

3- يجب أن يتم تفكيك موضوع التنمية إذا أرادت دول العالم الثالث إبطال تغلغل نفوذ السلطة، وللتغلب على البطالة والفقر والتمييز.

لا مناص من القول إن أن المصدر الحقيقي للسلطة هو أسفل القاعدة الهرمية للمجتمع، وليس قمته؛ ليست السلطة سلطة الدولة التي تمارسها أجهزتها المنتشرة في الجسد الاجتماعي، بل الدولة نتاج وأثر مجموع العلاقات السلطوية في المجتمع؛ حيث تكون السلطة، يجب أن تكون المقاومة، وبالتالي هذا ما جعل ثورات الربيع العربي تفشل فشلاً ذريعاً لأن القوى التي تحكمت بها لم تكن قوى حقيقية، بل كانت ذات مصالح رأسمالية أولاً وثانياً مصالح ذات طابع إمبريالي سعت إلى جعل الشعوب العربية غير قادرة على أن تتحكم بزمام القوة والسلطة. بالإضافة إلى هشاشة المفاهيم لدى العامة من قبيل الديمقراطية والحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية وغيرها مما يتعلق بالإنسان العربي.

ملاحظات ختامية

من خلال التدقيق في موقف فوكو من السلطة يمكن إيراد الملاحظات التالية:

أولاً: لقد توجه نقد فوكو للسلطة انطلاقاً من منهجه الحفري الذي لا يؤمن بمركزية الهيمنة، ولا يخضع لرقابة المؤسسة المتنفذة، والسلطة في نظره ليست شراً، واللاسلطة ليست خيراً، وفوكو لم يحارب السلطة لذاتها، إنما حاول تفكيك أنماط وجودها عبر مسيرة العقلانية الأوربية، أي أنه واجه السلطات الاستبدادية التي قيدت الجماهير بحجة عقلنة الواقع الفيزيقي، وبحجة تحقيق أو توفير أسباب التطور والتقدم، وفي هذا الإطار يحدد فوكو ماهية السلطة بقوله: "السلطة ليست مؤسسة، وليست بنية، وليست قدرة معينة يتمتع بها البعض، أنها الاسم الذي يُطلق على وضع استراتيجي معقد في مجتمع معين.

ثانياً: هدف فوكو من تفكيك دعائم السلطة المتفردة، هو الوصول إلى اعتماد مفهوم جديد لها، لا ينطلق من مبدأ التسليم بفرادة قوة معينة، إنما القصد منح علاقات القوى المتعددة المجال لممارسة فعاليتها، انطلاقاً من نقطة لا حصر لها، وفي خضم علاقات متحركة، تُفعل الصراعات والمواجهات التي لا تنقطع، وهذا يدفع -حسب فوكو- إلى إنعاش الفعل الاجتماعي، ويقود إلى حيوية دلالية متواصلة في أصعدة مختلفة.

ثالثاً: انطلاقاً مما سبق لا تقوم علاقات السلطة خارج أنواع أخرى من العلاقات منها: الاقتصادية، والاجتماعية، والجنسية، إنما تكون هذه العلاقات محايدة لها، وتنتج علاقات السلطة من قبل التقسيمات والاختلالات والصراعات الكامنة في العلاقات السابقة، ويحيل هذا التوجه إلى سمة العلاقات المنتجة للسلطة التي تتسم بالجزئية، وبالصيغة التفاعلية مع العلاقات الواقعية الأخرى، وبهذا تنتفي آلية الهيمنة، وتتحد عقلانية السلطة بعقلانية التخطيطات المترابطة فيما بينها، ويأتي التركيز على حركة هذه العلاقات انطلاقاً من فهم ونقد آليات السلطة بدلالة علاقات القوة، التي ينبغي أن تُفهم -حسب فوكو- بعيداً عن تأثير الفاعل(فوكو، 1988، ص:81).

رابعاً: إن مشروع فوكو المتجه نحو تفكيك هيمنة السلطة هو تعبير عن إرادة القوة النيتشوية، فقد بيّن هذا المشروع أسباب سقوط القوة في المسيرة التاريخية، لتتحول إلى سلطة مركزية متفرعة إلى شبكات من الرقابات المختلفة في تاريخ الثقافة والحضارة، مما مهد بشكل أساس لظهور تقنيات السلطة التي كانت مدار جهود فوكو في النقد والتحليل، والجامع بين إرادة القوة، ونقد السلطة هو: "أنّ القوة هي الحامل الحقيقي للمعنى"، وأنّ السلطة هي القوة

الوحيدة التي تقدر على انتزاع حقيقة المعنى والتلاعب بها، وفقاً لما تقتضيه علاقات الهيمنة.

خامساً: لقد جعل فوكو مسيرة السلطة طريقة تعمل بها الأبجديات السياسية من خلال الجسر الاجتماعي، المثقل بتركات النشاط الجنسي، لذلك حدد فوكو مرتكزات السلطة بنقطتين هما:

1. الجنس البشري، وليس المقولات القانونية.

2. التركيز على الجسد بوصفه موضوعاً للاستثمار.

ويدخل الجسد الحامل للنشاط الجنسي بوصفه وسيلة من وسائل توسيع السلطة، التي لم تعد تنحصر في المؤسسات السياسية، إنما اتجهت إلى علاقات اجتماعية أخرى تركز على الاهتمام بالذات، وتُفعل الخطابات والممارسات المتعلقة بالجنس، مثل: (النشاط الجنسي، والشيق، واللذة، والألم....). وقد عد فوكو هذه الممارسات شكلاً تاريخياً للخطاب، وجوهراً يحدد هوية الفرد، ومنزلته الشخصية، ونظاماً مركزاً على الجسد، وصولاً إلى مرحلة إشباع الرغبات، والتصدي لمحاولات نكران الذات.

المراجع العربية

أبو خاص، جودة محمد إبراهيم، (2017)، المنظور الفلسفي للسلطة في أعمال فوكو، (دراسة في الفلسفة السياسية والاجتماعية)، الصادر عن: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

بارتنس، هانس (2005)، ما بعد الحداثة: فوكو، لاكان، النسائية الفرنسية، ترجمة: خميسي بوغرارة، مجلة نزوى، العدد 43

بغورة، الزواوي (2000)، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، (القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة).

الدواي، عبد الرزاق (2000). موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر: هيدجر، ليفي ستروس، ميشيل فوكو. دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت

دولوز، جيل (1987)، المعرفة والسلطة، مدخل لقراءة فوكو، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت

- السيد، رضوان (2011)، مقدمة: توماس هوبز، اللفيثان: الأصول الطبيعية والسياسية لسلطة الدولة، ترجمة: ديانا حرب، وبشرى صعب، أبو ظبي، دار الفارابي،
- عبد العالي، معزوز (2008)، فوكو وميكروفيزياء السلطة، مجلة مدارات فلسفية (مجلة الجمعية الفلسفية المغربية)، العدد 13
- فوكو، ميشيل (1988)، جينالوجيا المعرفة، ترجمة أحمد السطاتي وعبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء.
- فوكو، ميشيل (1990)، إرادة المعرفة. ترجمة مطاع صفدي وجورج أبي صالح. بيروت، مركز الإنماء القومي.
- فوكو، ميشيل (2003)، يجب الدفاع عن المجتمع: دروس القيت في الكوليج دي فرانس عام 1978. ترجمة الزواوي. دار الطليعة، بيروت
- فوكو، ميشيل (2004)، تاريخ الجنسانية، ترجمة محمد هشام، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء.
- فوكو، ميشيل، (1990)، المراقبة والمعاقبة ولادة السجن، ترجمة: علي المقلد، تحقيق ومراجعة: مطاع صفدي، بيروت: مركز الإنماء القومي،.
- يفوت، سالم (2005)، سلطة المعرفة، دار الأمان - الرباط.

المراجع الأجنبية

- Deleuze, Gilles (1988). *Foucault, tr. Seán Hand, pp. 24–5*. Minneapolis: University of Minnesota Press
- Foucault, Michel (1978), *The history of sexuality*, New York: Random House.
- Foucault, Michel (1998) *The History of Sexuality: The Will to Knowledge*, London, Penguin.
- Gaventa, John (2003) *Power after Lukes: a review of the literature*, Brighton: Institute of Development Studies.
- Gordon, Colin (1980). *Power/knowledge: selected interviews and other writings, 1972-1977*, Michel Foucault, New York: Harvester Wheatsheaf.

- Lentricchia, Frank (1988). *Ariel and the Police: Michel Foucault, William James, Wallace Stevens*. Univ of Wisconsin Press
- MacDonald, B. J. (2006). *Performing Marx: Contemporary Negotiations of a Living Tradition*, pp. 113–37. Albany, NY: State University of New York Press
- Pesses, Michael W. (2017). Lectures on the Will to Know: Lectures at the Collège de France, 1970–1971 and Oedipal Knowledge. Michel Foucault, *The AAG Review of Books*. Volume 5, 2017 - Issue 2
- Pickett, B. L. (1996). Foucault and the Politics of Resistance, (*Polity*, Vol. 28, No. 4).